الحياة الادبية فى شرق الاردن

بقلم السيد جريس القسوس

ما كنت أرغب فى التعرض لهذا الموضوع ، لو لم تنشر (الرسالة) الغراء بحوثاً ممتعة لمختلف الكتاب عن الحياة الأدبية فى بلدانهم . لهذا رأيت من واجبي ، وأنا بعيد عن شرق الأردن ، أن أقدم للقراء الكرام صورة صادقة بقدر الامكان عن الحياة الأدبية فى شرق الأردن . أقول هذا وأنا أشعر بحروجة الموقف ودقته ، إذ لا يخلو مثل هذا البحث من بعض الخطأ مهما توخى الباحث العدل والصدق فى بحثه

لم تكن بلاد ما وراء الأردن ، منذ خمسة عشر عاما ، إلا جزءاً من سورية لا ينفصل ، فهى لذلك بلاد فتية فى تكوينها السياسى وفى نهضتها الأدبية والاجتماعية . أما المقصود من هذا المقال النهضة الأدبية ، فلنقتصر على هذه ، تاركين البحث فى السياسة والاجتماع لعلمائهما

دبت فى شرق الأردن حياة أدبية جديدة ، لم يكن لنا عهد بها قبل بزوغ فجر الأمارة . فكان أول عمل قامت به الحكومة فتح المدارس الأميرية ، من قروية وابتدائية وثانوية ، وتحسين برامج التعليم ، وتوحيدها إلى حد ما ، فى مختلف المدارس الطائفية وغير الطائفية ، حتى أصبحت تنهج جميعاً نهجاً واحداً سوياً نحو ايقاظ الروح العربية الكامنة ، والتوفيق بينها وبين التيارات الجارفة التى بدأت تطغى على هذه البلاد من الغرب .

كانت شرق الأردن بحكم الوضع السياسى والجغرافى ، قبل الحرب العظمى ، بلداً مجهولاً ، ولانزوائه وانقطاعه عن البلدان العربية المجاورة لم يتسنّ لأهله الاحتكاك بأهل الأقطار الأخرى كل الاحتكاك ، فتمتزج بذلك الثقافات ، ولو كانت شبه متجانسة ، فتتفاعل ويتولد عن ذلك روح ويقظة جديدتان .

كانت الحياة الأدبية قبل ذلك راكدة ، والنفوس فاترة . والمواهب كامنة ؛ فلم تنبعث إلا بتأليف حكومة سمو الأمير المعظم ؛ عندئذ دخلت البلاد فئة راقية من أدباء الأقطار المجاورة ، وخاصة سورية ؛ فكان دخول هذه الفئة البلاد باعثاً كبيراً على احياء الأدب العربى ، واحداث نهضة فكرية مباركة لا تكون مبالغين إذا سميناها بالرنسانس ؛ فكان مثلاً لقصائد الشيخ فؤاد باشا الخطيب [١] شاعر الثورة ، والأستاذ محمد الشريقى [٢] وغيرهما من الأدباء الذين رافقوا الثورة العربية ، وطوّحت بهم الأقدار إلى هذا القطر الجديد ، أثر لا يستهان به فى احياء الآمال فى نفوس الأحداث ، وقد كانت ميتة آنئذ ، وفى ايقاظ الروح الأدبية الكامنة ، وتوجيهها فى السبل القويمة

ولقد نشطت الحكومة ، بعد استقرار الوضع السياسى فى البلاد ، إلى ارسال البعثات العلمية سنوياً إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت وغيرها من المعاهد الراقية فى سورية وفلسطين ، وتنبه الشعب الأردنى الى فضل العلم والأدب فى نهضات الشعوب ، فبادروا الى ارسال أبنائهم على نفقتهم الخاصة الى بيروت والجامعة السورية فى دمشق ، والى المدارس الثانوية فى فلسطين ، ولكثرة الطلاب كثر الاقبال على مطالعة الأدب ، المصرى منه والسورى ؛ فكان أثره فى ايقاظ الحركة الفكرية ، وتجديد الحياة الأدبية غير يسير

كل ذلك كان يحدث ، بينما الصحافة المصرية تغذى نفوس الأحداث بأدبها الراقى وعلمها الصحيح . ولا أبالغ إذا قلت إنه كان « للرسالة » أثر ملموس فى إحياء النهضة الفكرية ، وتشجيع الحياة الأدبية فى البلاد . فقد كان اقبال الطلاب خاصة على مطالعتها شديداً . وإننى أذكر — على سبيل المثال — أنه كان يباع منها فى حين نحو ثمانين عدداً أو أكثر فى بلد صغير كالسلط . «فالرسالة» وغيرها من المجلات والصحف العربية كانت ولا تزال ، تسد عوز البلاد وافتقارها الى صحافة حرة تعمل على تشجيع الانتاج الأدبى ، «وتحيى فى النشء أساليب البلاغة العربية»

بيد أنه ، وان لم يقم فى شرق الأردن إلى الآن مؤلف بالمعنى الصحيح ، أو أديب منتج يستمد مادته وموضوعه من الحياة ، إلا أننا نرى طلائع نتائج هذه العوامل المختلفة فى تكوين النهضة الأدبية الحديثة فى قيام فئة قليلة من حملة الأقلام النثرية كأديب عباسى ، والدكتور محمد أبو غنيمة ، وبشير الشريقى ، وعبد الحليم عباس ، والبدوى الملثم وغيرهم ؛ والشعرية أمثال مصطفى وهبى التل شاعر النوّر ، وصاحب ديوان « عشيّات وادى اليابس » ، وحسنى فريز ، والشيخ رشيد زيد ، وحنا الشوارب وغيرهم من الأدباء الأحداث

(١) مستشار سمو الأمير الخاص (٢) مفتش المعارف الحالى

لكن شرق الأردن تمتاز عن الأقطار العربيـة الأخرى ، وخاصة الساحلية ، بنوع خاص من الأدب ، أعنى به الشعر البدوى . وهو ، وان قل ، من حيث الكمية والنوع عما قبل ، فانه لايخلو من عناصر حية تميزه عن غيره من الشعر الراقى المعروف فى شرق الأردن وفى كثير من البلدان العربية . والشاعر البدوى شاعران : شاعر راوية ، يحفظ ، على أميّته كمية وافرة من القصائد المختلفة ، قديمة كانت أم حديثة ، ويلقيها فى شتى المناسبات كمجالس الشيوخ والأفراح المختلفة من مولد وختان وعرس ؛ وشاعر منشىء مبتكر ، وعدد الفئة الأخيرة يسير جداً إذا قيس بالفئة الأولى . وأكثر ما يكون الشعراء المنشئون فى مضارب البدو على سيف الصحراء . أما أشهر أبواب الشعر البدوى فالمدح والحماسة والغزل والعتاب والرثاء . ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نتبسط فى وصف هذا الشعر ، وفى معالجة شتى أبوابه بامهاب ؛ لكننا نقتصر على ذكر فريق من الشعراء البـدو المخضرمين — أى الذين نشأوا فى أواخر القرن التاسع عشر ولحقوا العشرين — ونخص منهم بالذكر نمر العدوان ؛ وقصيدته فى رثاء زوجه فصحاء مشهورة ، تتناقلها الألسنة فى كل مكان . وهو يستهلها بمخاطبة ابنه عقاب قائلاً : —(١)

البارحة ياعقابْ يوم القمرْ غاب بليلة العيد السـعيد الجديد

إلى أن يقول ، واصفاً نفسه بعد ما ألم بها من حزن لفقد زوجه :

كل ما غشيت امراحْ أو جئتْ مرقابْ
لجوح جوحَ الذيب وعضّ بيدّى
أنهفْ ونوح واقطر الدمعْ سكّابْ
على صويحبِ اللى راح ما هو من ايدّى
يا قلبى تقولْ سفوتْ حديد شبّاب
يامهجتى لوانّه حجرْ كن صار شيد
من لامنى يا عقابْ يبلى بارقط ثاب
من جنّة الوهاب ما يسـتفيد

ومعنى هذه الأبيات « أننى كلما مررت بربع ، أو صعدت جبلا ، عويت كالذئب ، وقضمت كفى حزناً ، ونحت وسكبت الدمع مدراراً على صاحبى المفقود ؛ وأنى بقلبى ناراً تضطرم اضطراماً يكاد منها ذلك القلب لو كان حجراً ، أن يصير كلسا . ألا فليبتل يا عقاب من لامنى فى ذلك بحية تميته ميتة لا يدخل بعدها الجنة »

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً أبو الكبابر من قبيلة الشرارات ، وهو مشهور بالشعر الحماسى ، ووصف الغزوات والمعارك . وقصيدته فى مدح عودة أبى تايه(١) وقد تحاربت قبيلته مع أهل الكرك . وفى هذه القصيدة يقول ، بعد أن يستهلها بذكر الله وطلب عفوه وغفرانه ، شأن غيره من شعراء البدو :

قُمْ يا على نُشرفْ على كلّ طايلْ
شـدّيتْ عوصا تقطعْ الدوّ حايلْ

أى انهض يا على (وهو بطل الطليعة) وأعدّ فرسك ، لنقطع الفلاة ، ونشرف على مواقع الأعداء .

إلى أن يقول واصفاً مرابع عودة أبى تايه :

تلقى بيوتاً بنوا بى نزيله تلقى حميل دلالهم عن نفيله
ألبن بالهيوان تسمع صهيله عزام لوجوه المسايير زافات
تلقى شابياً عندهم مستعدّ الحرّ الىّ باللازم يسدّ
عنه بجوض الخيـل يوماً يهد

عن حرب أبو تايه الىّ لَهْ الفعل عادات

(أى تلقى منـازلهم مضروبة فى أعلى الروابى دلالة على شجاعتهم ، وعدم خشيتهم العدو ؛ وفى مطارح النار تلقى حثالة البن دلالة الجود . وفى تلك الخيم تسمع صوت الهاون ؛ إذ يدق فيه البن ، فيكون بصوته ذاك داعياً للخير والضـيافة ؛ تجد شيخاً حراً مضيافاً ، وفارساً مغواراً تتجنب الفوارس بطشه ، وترتعـد له الفرائص عند الحرب ، هو عودة أبو تايه »

ومن الشعراء المداحين سالم المرعى وعلى القزيمى وغيرهم ، وأنا أعرف من الشعراء الأحياء الذين يجيدون قرض الشعر البدوى فى شتى الأحوال ومختلف الظروف : محمد بن هلال ، وسعود المجالى فى الكرك . وقد يكون غير هؤلاء فى مضارب البدو فى الشمال وفى الداخل ، لكن دراسة هذا النوع من الشعر دراسة عميقة ، وتدوين هذه الأشعار قبل أن تعبث بها أيدى البلى يحتاج الى مشقة كبيرة من تنقل بين مضاربهم وتعرف الى أماكنهم وأحوالهم ، وطرق عيشهم

(١) اعتمدنا فى ذلك على كتاب (خمسة أعوام فى شرق الأردن) للطران بولس سلمان

(١) هو عودة أبو تايه شيخ قبيلة الحويطات الأردنية ، رافق الأمير فيصل فى الثورة ، وأتى من الفروسية الدهشة بالعجاب مما حدا لورنس إلى تخليده فى كتابه « عواميد الحكمة السبعة » ملقباً إياه بروبنهد البدو « The Bedouin Ropinhood »